

الصحراء وثقافة شعوب الهامش في
رواية "عيون الطوارق" لألبرتو فاتكت
فيكيروا "

فتيحة بركات
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة باجي مختار-عناية

ملخص

"عيون الطوارق" رواية أسبانية تعرض حياة الطوارق، وتعبر عن قضايا هامة تتعلق بالمعتقدات والقيم ومصير الأقليات و تندد بالظلم الذي يقع على شعب الطوارق جراء السباقات الرياضية. تؤدي الكتابة وظيفتين، حمل الثقافة وتدوينها و التنديد بالتصنيفات العرقية والجغرافية غير الموضوعية للشعوب ولثقافتها. إذ يهدف نص "عيون الطوارق" إلى إيصال صوت شعب الأيموهاغ المكتوم، ويسلط الضوء على أثره الثقافي الخاص الذي يهدده الضياع. كما يشير إلى عملية التحول بين مجتمع الطوارق التقليدي و العصرية. نهدف من خلال هذه الدراسة إلى توضيح كيفية حضور الصحراء في المتخيل الغربي و طرح مسألة الغيرية واستعراض مأساة الرجال الزرق كما يشهد بها كاتب غربي.

مقدمة:

حقق توظيف الصحراء والثقافة
الصحراوية إنجازا نوعيا للخطاب
الروائي العربي والعالمي؛ و لئن
كان تناول الصحراء في الإبداع
الأدبي هو تأكيد على الخصوصية
و الهوية الثقافية بالنسبة إلى الذات
العربية، فإن تناولها في كتابات
المبدعين الغربيين تعد تجربة
مغايرة في الكتابة، وانفتاحا على
الآخر وخلق فضاء جديد في
الإبداع، ليس ذلك لأن كتاب الغرب
لم يكتبوا عن الصحراء في مراحل

Résumé

Los ojos del Tuareg d'Alberto Vázquez-Figueroa, est un roman espagnol qui raconte la vie des minorités marginalisées, et vise à analyser la crise des Touaregs, en dénonçant l'injustice des conquérants venus d'occident à cause du rallye qui se déroule chaque année. Le texte est alors chargé d'une double fonction à la fois mémorielle et revendicative. Le texte tente de faire entendre la voix anonyme du peuple Imohagh et présente toute la transition qui s'opère entre la société traditionnelle Touareg et la modernité. L'objectif de notre étude consiste à mettre en évidence les représentations du désert dans l'imaginaire occidental. Dans cet ordre d'idée, nous tenterons de traiter la question de l'altérité et d'exposer le malheur des hommes bleus auxquels renvoie le texte d'un écrivain occidental.

سابقة في تاريخ الرواية الغربية لكن تناولهم الصحراء الأفريقية تم وفق رؤية جديدة واسعة وبوعي أكبر ليس بسحرها و جاذبيتها وحسب وإنما بعمق تراثها وثقافة أهلها وعلاقتها بالإنسان ، فشكل توظيف الصحراء الأفريقية شكلا من أشكال الحوار مع ثقافة مغايرة ظلت مهمشة ضمن هذا السياق أسهمت بعض النصوص الروائية لكتاب الغرب في التعريف بثقافة شعوب الهامش كخطوة نحو الاعتراف بخصوصية الآخر الثقافية واختلافه، فشكل هذا التوجه مساحة حوار مثمر تم بفضلها القضاء على الكثير من الأفكار الراسخة والتصور النمطي الذي اختزل الآخر (سكان الجنوب) في مرتبة التابع للغرب ومنجزاته.

اتسم حضور الصحراء في إبداعات كتاب الرواية الغربيين بالتغير والاختلاف من كاتب لآخر ومن مرحلة إلى أخرى، فمن التيار العجائبي إلى التيار الاستعماري إلى التيار الإنساني، أسهمت كتابات الصحراء في تشكيل صورة الآخر وتنامي هذه الصورة في المخيال الغربي. وطرحت قضايا تتصل بعلاقة الذات بالآخر و تحلل علاقة الشمال بالجنوب وفق معادلات تختلف باختلاف الموقف الحضاري والسياسي وتغير صورة الآخر. لقد شكلت الصحراء فضاء رائعا للغرائبية و الأحلام في أدب الرحلة، أما في النصوص المعاصرة فالصحراء هي الفضاء الثابت واللازمي والسرمدي والروحي⁽¹⁾ والجدير بالملاحظة أن تمثيل الصحراء في الرواية الغربية يختلف باختلاف ثقافة الكتاب المبدعين الذين أبهرتهم و ألهمتهم الصحراء منذ القرن التاسع عشر، إذ شكلت بعدا مختلفا و فضاء بكرا و ثريا مكنهم من بناء عوالم تخيلية متنوعة. فمن بيير لوتي Pierre Loti إلى إزابال أبرهارد Isabelle Eberhardt، إلى تيودور مونو Théodore Monod، من سانت اكزبيري Saint Exupéry إلى ألبر كامو Albert Camus ألبير كامو، لا تزال الصحراء فضاء ملهما للعديد من كتاب الرواية الغربيين نذكر على سبيل المثال لا الحصر جون ماري غوستاف لوكليزيو J.M.G Le clezio الذي حاز على جائزة نوبل لعام 2008 وباولو كويهلو Paolo coelho و ملان كوندير milan Kundera و القائمة طويلة؛ ومن الكتابات التي اهتمت بالصحراء من خلال الاحتفاء بالهامش

والأقليات الهامشية، رواية للكاتب الأسباني البرتو باثكت فيكيروا Alberto Vazquez Fegheroa، تناول من خلالها حياة قبائل الطوارق عنوانها "عيون الطوارق" " Los ojos del Tuareg ". والجدير بالذكر أن الكاتب ينطلق من دافع خدمة الحقيقة التاريخية و تقديم صورة عن هذا الشعب بعيدة عن كل تلميط وتشويه ، ساعده على ذلك تشبعه بالثقافة الصحراوية بحكم تجربته في الصحراء ومعايشته للرجال الزرق ، فضلا عن انتسابه إلى ثقافة هجينة ، مما يخوله لتقييم القيم الثقافية لثقافة الشمال وثقافة الجنوب ومعرفة ميزات كل منها .

في رواية "عيون الطوارق" يتم التركيز على ثقافة الطوارق ويضعنا عالم الرواية أمام عوالم صحراوية تنبض بالحياة والتنوع والتعقيد ،و يكشف الصراع بين ثقافتين مختلفتين كل الاختلاف و يلفت الانتباه إلى ثقافة الهامش واختلافها وتميزها، ويفضح الإفلاس الذي يتهدد ثقافة الشمال بسبب انهيار القيم وسيطرة المادة .

حضور الصحراء في الرواية فاعل وقوي باعتبارها فضاء للسرد، و طرفا في الصراع بين ثقافتين: ثقافة المركز وثقافة الهامش، فلا تحضر الصحراء في الرواية حضورا جغرافيا بل كمركز قوي. و سعيا منه إلى انتقاد الثنائية التراتبية (المركز والهامش) يمرر الكاتب خطابا أيديولوجيا و يخلق استراتيجية جديدة فيجعل من صحراء الطوارق مركزا وباقي العالم هو الهامش .

1-صلة الإنسان بالصحراء :

يعيش شعب قبيلة "كيل- تالغيموس " " شعب اللثام "في عزلة بعيدا عن مواطن الحضارة ، ويسعى إلى إثبات ذاته والحفاظ على هويته الثقافية في عالم يموج بالحروب والاعتداءات و ظلم الشعوب القوية للشعوب المستضعفة .

منذ البداية تشير الرواية إلى التحديات التي تواجهها عائلة غزال صياح التي اختارت العيش في الطرف الضائع و الأكثر بعدا في تينيري* بحثا عن الأمان في أحضان الصحراء ، تنحصر ثروتها في ثلاث نخلات وبئر شحيح و ثلاثة جمال

وبعض الماعز وشجاعة وحنكة ورثها غزال صياح عن أبيه الأنموشار النبيل الذي استمات في الدفاع عن شرفه و الحفاظ على تقاليد قبيلته .

يتمثل الصراع في أشكال عدة، صراع بين الإنسان و الطبيعة ومواجهة فساوتها لأجل مواصلة البقاء، وصراع بين التقاليد و المدنية الوافدة التي تتهدد بيئتهم و وجودهم. والنوع الثالث من الصراع صراع مع قوى الشر في النفس البشرية.

يقول فيليب فراي Philippe Frey: " يجد كل منا في الصحراء ما يأمل أن يجده لكن عندما نعرفها معرفة حقيقية تصبح علاقتنا بالمكان عملية وأكثر براغماتية. أما بالنسبة إلى أهلها فإن العيش فيها قضية صراع من أجل البقاء في بقعة معزولة".

إذا كانت قيمة الصحراء في ثقافة الشمال تتحدد بسحرها وامتداداتها اللامتناهية و بما توفره من متعة ومغامرة ،فان قيمتها في ثقافة الجنوب تتحدد بالأصالة و استمرار البقاء ؛ ولئن عدت الصحراء أرضا قفرة و مجرد منطقة عبور بالنسبة إلى القادمين إليها بحثا عن المغامرة أو باعتبارها متحفا مفتوحا يلهم زائريه، فهي حياة وحرية بالنسبة إلى أولئك الذين ينتسبون إليها ويتوحدون معها ويدركون قوتها وتأثيرها اللامحدود على الإنسان باعتبارها منطقة وجودية لها أسرارها و نواميسها؛ يدرك الطوارق هذه الحقيقة فيعتصمون بالصحراء يدفعهم إليها ائتلافهم معها وتواضعهم لها وهذا ما مكنهم من البقاء فيها : " نحن شعب على قدر من الاعتزاز بالنفس ولا ننحني إلى أي إنسان، لكننا على قدر كبير من التواضع كي ننحني أمام الطبيعة، لأننا نعلم أن الله قد خلق العالم منذ ملايين السنين قبل أن يخلق الإنسان، وهذا الأخير هو مجرد مسافر عابر ."(2) يعترف الطارقي بجبروت الصحراء وسطوتها ومن ثم صعوبة إخضاعها فينحني أمامها، يقبل بشروط العيش فيها و بتقلباتها و يرضى بقدره دون أن يتحدى .

على هذا الأساس تمارس الصحراء فعلا مزدوجا فهي تشكل ملاذا و مأوى للطوارق و تروضهم و تطبع سلوكهم بما تفتقه من أحاسيس وما تغرسه فيهم من قيم و فضائل مثل الصبر والزهد و نصرة المستغيث والنبيل وغيرها من القيم التي تحدد تركيبتهم النفسية ، " الصبر هو السلاح الذي استطاعوا بواسطته البقاء على

قيد الحياة هناك حيث شعوب كثيرة أخرى كانت ستهلك، والصبر كجين إضافي إلى جينات سلالاته المختلفة عن السلالات الأخرى ، وكأن لون جلدهم هو حقيقة أزرق .⁽³⁾ .الصبر جلد ثان يلبسه الطارقي منذ البلوغ. "أوصيك بالصبر. كيف تستقيم الصحراء بدون صبر؟ من لم يوهب هذه النعمة لن يطيب له المقام في الصحراء. عليك بالصبر و الحيلة فهما سر الصحراء . لا احد يستطيع أن يتنبأ من أين يمكن أن تأتي النجاة، من السماء أو من الأرض. المهم أن تصبر و تنتظر. الصبر هو كلمة السر "⁽⁴⁾. و هناك قيمة أخرى لا تقل أهمية بالنسبة إلى الطوارق و هي الزهد في ملذات الحياة إذ يعتبرون الثروة من الزائل العارض الذي يجلب المصائب، لذلك نجدهم يتخلون عن الزائد ويكتفون بالضروري الطبيعي. فغزال صياح عندما عرض عليه مفاوضه مليون فرنك مقابل أن يتراجع عن تطبيق حكم الطوارق أجابه بان الذاكرة لا تعرض للبيع، و راح يبرر موقفه و يفسر رؤية الطارقي التي تدين عالم المادة : " نحن الرحل نمقت الأشياء إذ أن أي شيء مهما كان ثمينا يتحول إلى عائق ساعة الرحيل . يطلقون علينا (أبناء الريح) وربما ذلك لان الريح لا تحب الأشياء أيضا :تدفعها، تحطمها أو تهجرها، لكن لا تحتفظ بها أبدا ."⁽⁵⁾. التملك قيد يحد من حرية الطارقي لذا يتحرر من أسر المادة و يزهد في الدنيا كي يحصل الغنى الروحي و الحرية التي يتوق إليها، فالأشياء المادية مهما كانت قيمتها تجلب سوء وتؤثر على النفس البشرية إن هي تعلقت بها. و هو في موقفه هذا يركز إلى رؤية صوفية تحرم تعلق الإنسان بملذات الحياة. و من الأبعاد الصوفية الأخرى التي يلمح إليها الكاتب من خلال موقف شخصيات الرواية، الاعتصام بالعزلة والتأمل و التوحد مع الطبيعة. يتعلم الطارقي في الصحراء كيف ينصت إلى الكون من حوله وكيف ينفذ إلى قلب الأشياء، فمن يعرف الصحراء يثير دهشته السكون الغريب الذي يلفها وهذا ما يجعل الإنسان يتأمل ويقوده طول التأمل إلى البحث عن أجوبة كونية ، فالتأمل ميزة عظيمة تشد الحواس و توهب البصيرة " أول واجب على الاموهاغ هو تمحص كل حركة للسماء ،الأرض،الناس،النباتات والبهائم،لأنه من المعرفة العميقة بهذه الأشياء يتعلق

طول حياته⁽⁶⁾. إلى جانب ذلك تفعم الصحراء قلب الإنسان بالنقاوة وتمنحه طاقة مشعة يتغلب بها على الشر ويسعى إلى اكتساب الطمأنينة الداخلية التي تقوده إلى الحكمة "في أرض الجفاف تنبت الحكمة، وتنمو، وتفتح، فتجد إلى النفوس طريقا، وتشق إلى السماء سبيلا، لتزواج بين نواميس الأعالي وشرائع الأسافل، فتعقد قرانا أديا بين السماء والخلاء."⁽⁷⁾ ومن السجايا النبيلة التي يمتاز بها أهل الصحراء الالتزام بكلمتهم مهما كلفهم ذلك. نستخلص مما تقدم أن لدى الطوارق التزامات خلقية تجاه الطبيعة والبشر هي أساس هويتهم الثقافية ومصدر وعيهم بالذات الجماعية .

2- صراع البقاء:

2-1- العادات والتقاليد في حياة الطارقي:

يرتبط استمرار حياة الطوارق في الصحراء بتمسكهم بقانون الأعراف والتقاليد وارتضاء أحكامه، إذ تمثل التقاليد ثمرة تجارب آلاف الأجيال التي عاشت في نفس البيئة، و فيها يكمن سر تكيفهم مع الصحراء. كما تلعب الذاكرة الجماعية دورا فعالا في الحفاظ على كيان الشعوب ذات الثقافة الشفوية فتنتقل القيم التي أسسها الأسلاف نقية مشعة عبر مختلف أشكال التعبير، لا تتطفئ شعلتها ولا يضعف الزمن من تأثيرها على الأجيال المتعاقبة من هنا "جاء احترام المحكي التقليدي الموروث عن الماضي. ومن هنا اكتسب الكلام قوته، ففي الثقافة الشفوية. الكلام هو الرجل. إذ من الجائز إضفاء جماليات على مستوى الشكل أو إحداث تغييرات على مستوى الشعرية، لكن يبقى الحرص شديدا على حفظ الحكمة التي تظل نقطة عبر العصور تتولى الذاكرة نقلها ويلتزم كل جيل باحترام وتقديس ما جاء فيها وتداوله بأمانة ووفاء بالغين"⁽⁸⁾. يدل ما تقدم على أهمية الكلام في الثقافة الشفوية وما يترتب على تلك الأهمية من التزام الأفراد تجاه الكلام على عكس الثقافة المكتوبة. يدرك غزال صياح أهمية التراث الشفوي لذا نجده يحث أخاه على الإصغاء بانتباه إلى الأمثال التي تنتقل من فم إلى فم ، يفسر البطل سر هذا الاهتمام يقول: " إذا كانت الأجيال من أجدادنا القدماء قد بذلت جهدا كي توصل إلينا ذلك

فلأنهم يريدون أن يتركوا لنا إرثا نستفيد منه حين نجد أنفسنا مجبرين على العيش في الصحراء. إنها التجربة التي تمنع الشمس من أن تجعلنا نتهيج، وتمنع الظما من أن يبعث فينا على الجنون أو أن يدفننا الرمل قبل الأوان" (9) من المؤكد انه لا يستطيع العيش في الصحراء من لا يدرك أسرارها و نواميسها ولا يكون خبيرا بتجارب أهلها فيها.

يستمد " شعب اللثام " قوته من تقديسه للمبادئ والسنن التي خطها الأسلاف وكشف التعاليم المخبأة فيها والتفاني في الاحتكام إليها في كل أمور الحياة وهذا ما يمكنه من تنظيم حياته و مواجهة أي خطر خارجي يهدد وجوده و في هذا الشأن يقول شيخ الاماهغ: " يمكن أن يكون شعبي فقيرا جدا ومحكوم عليه بالزوال مثلما يتعلق الأمر بكثير من "الأنواع المهددة " التي تقضي عليها المدنية بشكل يومي، لكن ما يمكن أن تكون متأكدا منه هو انه في اليوم الذي نخفي فيه عن وجه هذه الصحاري سنكون ما نزال نحترم أنفسنا ووصايا أجدادنا." (10). إن قوام الهوية بالنسبة إلى الشعوب التي تعاني التهميش والمهددة بالزوال هو الثقافة الأصيلة التي تميزهم عن باقي الشعوب ؛ يقول غزال صياح معللا هذا المسعى :

"إذا كان شعبي قد استطاع البقاء على قيد الحياة خلال قرون "في ارض محزنة لا تصلح سوى لاجتيازها "هذا لأنه كان يعرف دائما حدوده والمجال الذي يستطيع التحرك ضمنه ."(11) إن هذا الشعب الذي رضي بالحياة القاسية في مملكة الصحراء يسكنه حنين ميتافيزيقي للمجهول سعيد بمنفاه" هذه الخصوصية التي كانت لمجتمع الطوارق ، لم تكن لتبقى لولا احتماؤهم بصحرائهم، ورفضهم التبعية لأي كان ، فكانت النتيجة أن حافظوا على عقيدتهم وتراثهم نقيين دونما تغير." (12) وهذا ما يقف حصنا منيعا أمام محاولات إخضاعهم والسيطرة عليهم.

2-2- صراع المدنية والتقاليد:

عادة ما ينتج عن لقاء الشمال بالجنوب صراع بين المدنية والتقاليد ، إذ تقوم ثقافة الشمال على أساس وحيد من العلم والتقنية وتغفل حاجات الإنسان الروحية على عكس ثقافة الجنوب، وعليه راحت التقنية تفرض نفسها لا على الإنسان

الغربي وحده، بل على الإنسان في كل بقاع الأرض ، يفضح المؤلف الأزمة الروحية والأخلاقية لحضارة الشمال و يبرز حقيقة عالم خرب كل القيم وذلك من خلال بعض المواقف في الرواية .

تبدأ المواجهة بين العالمين عندما يتجرأ أحد المتسابقين على انتهاك قانون الضيافة في موقف احتقار واستعلاء وعدم الاعتراف بحق الآخر في الذب عن مضرته . يعلق غزال صياح على هذه الحادثة يقول : "ما يحدث هو أننا بالنسبة له مساكين من الصحراء، منبوذين لا نكاد نكون أكثر من كلاب اعتاد دهسها في طريقه" (13) بعدما يغلق الأوروبي كل باب للحوار، ويقوم بتسميم البئر ،يصر غزال صياح على تطبيق الحكم بقطع اليد اليمنى للمتسابق الذي انتهك قانون الضيافة، هدد بالسلاح من استقبلوه بسلام وقام بتسميم البئر المصدر الوحيد للماء. ورغم كل محاولات التفاوض من طرف منظمي السباق إلا انه يفرض احترام عادات سلالته. توظف هذه الحادثة الوعي بمعاناة الأماغج جراء التعسف والظلم الذي يقع عليهم، إذ اعتبرت أرضهم قاعدة نفايات العالم المتقدم ،ففي كل سنة يحل بأرضهم أناس من الشمال بدعوى المشاركة في المباريات الرياضية ، يغزونهم ،يقتلونهم ، تاركين أرضهم مزروعة بالعربات المحترقة ، علب مرطبات فارغة واقيات مستعملة وكل أنواع النفايات، إضافة إلى الأضرار التي تخلفها مثل هذه السباقات من قتل الأطفال ودهس القطعان؛ مما يخلق معاناة ومحنة الطوارق ، فما الذي يجبرهم على قبول هذا الوضع اللانساني ؟ هنا يتساءل رئيس مجلس شيوخ شعب " كيل - تالغيموس " مستنكرا: " لماذا علينا حضور عرض لتبذير الثروة في قضية لا جدوى منها على الإطلاق ،إذا كان ما ينفق في مرة واحدة على ذلك السباق يحلون به القسم الأعظم من مشاكل شعبي ."(14)

تتسبب السباقات التي تنظمها الشركات كل عام في اغتصاب الصحراء بكل لامبالاة واتخاذها ساحة للاستمتاع والمغامرة ولا ينظر للصحراء باعتبارها تراثا طبيعيا يجب المحافظة عليه ؛ وهو ما يعترف به احد منظمي السباق "إننا نحول قسما كبيرا من أفريقيا إلى مجرد قاعدة سباق لعدد لا يحصى من العربات ، الدراجات

النارية ، الشاحنات ، قطع التبديل ، الزيت وكل ما هو متعلق بعالم المحرك .
وكما يحدث عادة لمراكز السباق لا أحد يتذكرها إلى إن يعودوا ويحتاجونها.⁽¹⁵⁾
يدرك منظمو السباق أن في هذه السباقات خطرا على البيئة و تبذيرا للثروة والقوة
في قلب قارة الفقر المدقع لكن هذا لا ينفي وجود رياضيين حقيقيين يملأهم الحماس
والحيوية، يؤمنون بال صداقة والحرية وهدفهم من المشاركة في مثل هذه المغامرات
المثيرة تنمية أحاسيسهم و إثبات ذاتهم مما يجعلهم أكثر قوة وأكثر تضامنا.

والأمر الذي لا يروق للكثيرين من أصحاب الضمائر الحية فيقفون موقف الرفض
تجاه هذا الوضع هو أن الشركات التجارية المساهمة في ميزانية هذه السباقات
تكرس عملها أيضا في تصنيع الأسلحة وواحدة منها متخصصة في نوع من الألغام
التي تقتل وتبتر أعضاء ألوف الأطفال كل عام ، ليس فقط في أفريقيا إنما في العالم
كله. إن من بين هؤلاء من يجد نفسه متورطا مع هذه المنظمات ، لكن لا يمنعهم
ذلك من انتقاد الوضع والتنديد به فهم يرون أن " مثل هذا العرض للوسائل
الاقتصادية أمام أعين بعض الأطفال الذين لا يملكون كرسيًا بائسًا يعوضون به
عن فقدان أرجلهم التي بترها لغم أو قذيفة قامت بتصنيعها هذه الشركات ذاتها لا
يعني علامة على الذوق الرديء فحسب إنما دليل في منتهى الوضوح على
الاحتقار الذي نكنه لمن ولد خارج حدودنا ."⁽¹⁶⁾ ترتكب هذه التجاوزات على
مرأى ومسمع من العالم فتزيد من مأساة الطوارق وكل الشعوب الأفريقية التي
تخضع للهيمنة و تعمل على تغييبهم و تجاهل مشاكلهم. و كما هو شائع في خطاب
الثقافة الغربية أن شعوب الهامش متخلفة وليس لها تاريخ ولا ثقافة وبالتالي يتولى
الغرب مهمة تحضيرها و انطلاقا من هذا التصور الخاطئ

تتكرر المركزية الغربية على شعوب الهامش و التجمعات العرقية الصغيرة حقها في
الحفاظ على كيائها و اختيار طريقة عيشها بسبب نزعة التفوق والتميز والاستعلاء،
فلا تتصور وجود شعوب لها كيائها ولها ثقافتها خارج نطاق الثقافة الغربية،
وتظهر الآخر في صورة الدوني والأقل شأنًا . "حيثما وصل" الرجل الأبيض" كان

يحمل معه انتماء عرقيا ودينيا وثقافيا يضعه في مرتبة أعلى بكثير من أولئك الذين ينتظرون منه أن يخترق سكون انتمائهم العرقي والديني والثقافي " (17).

ومن آثار الاستعمار التي لم تزل بزواله التقسيمات الجغرافية التي فرضها المستعمر على المناطق الأفريقية بغرض أضعاف شعوبها و تشتيت جهودهم و تفريق وحدتهم : "حتى الآن لم تكمل أفريقيا تأسيس حدودها الحقيقية، ولم تحدد أين وكيف تسكن الأجناس العريقة المختلفة . لا يكاد يمضي أربعون عاما على منح الاستقلال لأغلبية هذه البلدان وما هو مؤكد أنها ما زالت تتبع الحدود التي رسمها الكولونياليون بمسطرة ودون أدنى احترام لمن يريد العيش كل في مكانه " (18) .

لقد أصبح جليا أن من نتائج المخطط الاستعماري تقسيم الصحراء وتوزيعها على الدول توزيعا يقضي بجعل سكان الصحراء الطوارق أقلية مهمشة في تلك البلدان و زرع مشاكل في المنطقة تعوق تطور القارة وتبقيها تابعة للمستعمر بعد فشله في استغلال خيرات الصحراء والهيمنة على شعوبها. وبهذا لقي الطوارق نفس المصير الذي لقيه الهنود الحمر حيث حوصروا و شتتوا في طول وعرض مجموعة من البلدان مما اضطرهم للتوغل في قلب الصحراء والانكماش يسكنهم حلم تكوين بلادهم الخاصة وفق قوانينهم الخاصة .

نلاحظ كيف ينتقل الكاتب من الفردي إلى الجماعي، من قضية ذاتية تتعلق بمصير عائلة غزال صياح إلى قضية قومية تتعلق بمصير شعب برمته؛ وهذا ما يعطي الرواية بعدها السياسي والثقافي . ففي حين يطالب غزال صياح بحقه في الثأر ممن اعتدى عليه باحتجازه للرهائن وعدم تسليمهم إلا باستلام مرتكب الجريمة لتقطع يده، يقرر مجلس شيوخ شعب اللثام إيقاف الرالي عبر الأراضي التي يوجد فيها مجموعات من الطوارق مما يضطر المنظمين إلى التعاقد مع طائرات "أنطونوف 124" لنقل الأشخاص والدراجات النارية والعربات والشاحنات من أجل الوصول إلى القاهرة في الموعد المحدد . إن تكاليف عملية جوية بهذه المواصفات الهائلة تفوق بكثير ما اعتادوا القيام به حين يحاولون تدارك الكوارث الناتجة عن إعصار في أمريكا الوسطى، هزة أرضية في تركيا، أو المجاعات

الأفريقية الرهيبة التي يكون ضحيّتها ألوف الموتى " (19) لكن الشركات التجارية التي ترعى السباقات الرياضية لا تعنيها مثل تلك المهمات الإنسانية على الإطلاق ما يهمهم هو الدعاية والربح . وإذا كانت عبقرية رئيس الأمن الإنجليزي أوحت له بهذه الفكرة لمواصلة السباق فانه لم يتردد في تكليف أحد المرتزقة بالاهتمام بقضية الرهائن دون اعتبار لعدد القتلى . ولكن الأحداث تسير في اتجاه معاكس لما خطط له و يتفوق غزال صياح عليهم ويخرج منتصرا بفضل معرفته بالصحراء و استفادته من طبيعتها وتسخير الرياح والشمس والرمال لصالحه فهو يدرك تمام الإدراك أن الصحراء محاربة قديرة وأن "كل من يحاول هزم الصحراء يقدر قواه بشكل سيئ(...)" منذ أن أصبح العالم عالما ومنذ أن حلم الفراعنة بالاستيلاء عليها، اختفت بين رمالها مئات من الجيوش . "(20) لقد انهزم الآخر لجهله بقوة الصحراء و بتعبير نيتشه ويل لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء (21) و القيمة التي تستخلص من هذه النهاية أنه مهما بلغ الإنسان من تطور يبقى عاجزا أمام قوى الطبيعة التي تتحداه بغموضها ونواميسها، كما تحيل النهاية على حقيقة أخرى تكشف هشاشة الحضارة التي بنيت فقط على أساس مادي وما تمسك غزال صياح بموقفه على الرغم من تفوق أعدائه ، بفضل ما يملكونه من قوة و من آلات حديثة متطورة، إلا تأكيد على قوة الجانب الروحي في مواجهة المدنية في جانبها التدميري .

و نعرش في الرواية على نوع آخر من الصراع هو الصراع ضد الطبيعة الشريرة في البشر. حين تغدو الصحراء برزخا بين الإنسان والعالم الآخر مكانا ينفث على عوالم خفية تنقل الإنسان إلى آفاق أرحب فتسمو بروحه. ولا تقفأ تذكره بأنه لا محالة فان و تضعه وجها لوجه أمام نفسه وأمام تساؤلاته .

نجد في الرواية مثالا عن اللحظات الوجودية التي يعيشها الإنسان في الصحراء والتي تدفع به إلى الحدود القصوى؛ وهو التغيير الذي حدث لبرونو سيرافيان (مرتزق ارتكب كل أنواع العنف الوحشي الذي لا يمكن أن يرتكبه كائن بشري، شخص خطر وبلا رحمة ،يقوم بأعمال قذرة لصالح منظمي السباق) الذي كلف

بإبادة عائلة غزال صياح ، لكن هذا الأخير أنقذه من موت مؤكد بعدما نفذ ما لديه من ماء وحين سأله سيرافيان عن سبب إنقاذه له، أجاب: "إذا سمح اموهاغ لأحد بان يموت من الظمأ فستغلق أبواب الجنة في وجهه إلى الأبد" (22) بناء عليه كان الموت دفاعا عن الذين قدموا لهم حمايتهم مهما كالموت في مواجهة الذين احتقروهم وأهانوهم، هذا ما يعتقده الطارقي ويؤمن به وكأنه يريد بمثل هذا السلوك أن يبعث في الآخر الطاقة الروحية التي أخمدها الشر والقسوة التي تجذرت بأعماقه طوال سنين. فالقدر المشترك يقرب بين الناس على اختلاف انتماءاتهم وألوانهم و معتقداتهم فيتوحد الجميع وتزول الفروق العرقية و الثقافية والطبقية في مواجهة قوى الطبيعة وفي مواجهة المصير المشترك. لم يكتشف سيرافيان الإنسان بأعماقه إلا بعد مروره بتجربة قاسية في الصحراء، في الصحراء تطهر من كل الشرور التي كانت تحركه واستيقظت مشاعره النائمة: " حين ابتعد صوت المحركات أسند برونو سيرافيان رأسه بين ركبتيه وبكى بصمت للمرة الأولى منذ سنوات عديدة جدا . لم يشعر بأدنى عاطفة نحو الذين اعتبر بأنهم قد خانوه، لكنه لم يكن يرغب قضاء بقية حياته وهو يحمل وزر كل هؤلاء الأموات على كاهله " (23). لقد دفعته الصحراء إلى التصالح مع أعماقه. فالصحراء تطهر الروح فهي بطبيعتها القاسية القفرة تضيء روح الإنسان وتجعلها تثمر بما تروضها عليه من حب وحرية وقيم سامية ، تؤثر في وجدانه وفي سلوكه .الصحراء طبيعة تعرت، والروح تتعري فتتخلص مما يكبلها و يعيق سموها؛ إنها تسمح بالرحلة داخل غياهب النفس والتحرر من كل ما علق بها من أدران الحياة.

3 -جدل المادي والروحي:

تسعى الأقليات إلى ترسيخ خصوصياتها لكن هل تملك القدرة على الصمود أمام المد العولمي و أمام ضغط التقنية العصرية؟
ينفرد الطوارق بثقافة تميزهم عن كل شعوب العالم كما أن لهم طريقة عيش خاصة بهم " لم تكن حياتهم بدائية حتى يبحثوا عن طورها لهم ،بل كانوا أصحاب حضارة وتاريخ لم يشأ كبرياؤهم أن يغير أحد منها شيئا " (24) ولكن برغم هذا

الاعتزاز بمقومات الذات يعترف البطل بعجزه أمام التكنولوجيا و تظهر الحاجة ملحة إلى التطور إذ يقف منبهرا أمام الوسائل التي يملكها المشاركون في السباق ويعبر عن حيرته لأحد الرهائن يقول " يبدو لي أنه يلزمني مئة عام أخرى كي أفهم عالمك ". (25)

يكشف اللقاء مع الآخر حقيقة الذات، فتدرك النقص والتخلف الذي يتسبب في عجزها ،وتدرك حتمية التغيير والانفتاح على الآخر لتحقيق التطور ،لقد بات جليا أن الانغراس في الماضي والاحتفاء بأعراف الأسلاف وحده لا يحقق التطور، هذا ما استخلصه الابن الأصغر لعائلة غزال صياح وعبر عنه لأمه بمرارة: " ربما الذنب ليس ذنبهم ،ربما نتحمل قسما من الذنب لأننا لم نعرف كيف نتطور بدلا من أن نتقدم في هذه السنوات الأخيرة لم نفعل شيئا سوى التراجع ". (26) أدى اكتشاف الآخر إلى بداية الثورة على الذات، ويمكن القول أن عدم تكافؤ الأطراف في العلاقة مع الآخر ولّد شعورا بالتخلف والصغار، فكان أن رأت الذات نفسها بعيون جديدة، وبدأت المواجهات ؛هذا ما جاء على لسان الراوي يبين شعور العجز الذي بدأ ينتاب غزال صياح: "كل يوم يمضي يشعر فيه بفقر أكثر ، لكن ليس فقرا بالخيرات المادية، فهذا أمر اعتاد عليه دائما ، إنما فقر معرفي وقد تحول عنده إلى سبب جديد لمشاعر العجز والمرارة " (27)، لا شك انه أدرك أن الاستمرار في التقوقع على الذات و عدم تطويرها سبب أساسي في تغييبه وإلغائه وتهميشه من طرف الآخر. فالعزلة تبقى بعيدا عن مواطن الحضارة وبالمقابل يتيح الانفتاح على الآخر الاستفادة من الجوانب الايجابية من العلم والتقنية . فثمة دائما شيء يكتسبه كل طرف عند اتصاله بالآخر.

4 -خاتمة:

نقل الكاتب عبر روايته بعض أشكال ثقافة الطوارق وأكد على خصوصية مجتمع عايشه و عرف أدق تفاصيل حياته و هذا بحكم اتصاله بالطوارق و احتكاكه بثقافتهم. يجهر هذا النص بالقهر والظلم والحرمان السياسي والاجتماعي الذي يقع على الأقليات و يندد بهيمنة الثقافة الغربية في جانبها المادي ونزعة

الاستعلاء تجاه الشعوب المرتبطة بالغرب باعتباره مركزا في علاقة تبعية دائمة .
إن النص مساهمة فعالة في إيصال صوت هذه الفئات المضطهدة إلى العالم عبر
الكتابة؛ بقي أن نؤكد أن قيمة مثل هذه النصوص تكمن في إسهامها في الانفتاح
الثقافي والحوار بين الحضارات دون اعتبار للفروقات العرقية والجغرافية و لا
حتى الدينية، والاعتراف بالاختلاف و تقبله وهذا من شأنه أن يسهم في التقريب
بين الشعوب مما يؤهل تلك النصوص لاستحقاق صفة العالمية .

الهوامش

- 1- حسن لغدش، الصحراء في المتخيل الفرنسي: التعدد الثقافي بالمغرب، الثقافة الأمازيغية وثقافة الصحراء، منشورات مركز الدراسات والأبحاث الثقافية والتنمية، مراكش، المغرب، 2004، ص، 195 * تينيري = الصحراء باللغة الطارقية (تاماشيق) و معناه "العدم".
- 2- باتث فيكيروا ألبرتو: عيون الطوارق، تر، عبدو زغبور، دار ورد، دمشق، سوريا، ط1، 2006، ص 283.
- 3- عيون الطوارق: ص 69
- 4- إبراهيم الكوني: نزيف الحجر، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط1992، 3، ص 65.
- 5- عيون الطوارق: ص، ص 193
- 6- عيون الطوارق: ص، ص 250
- 7- إبراهيم الكوني: صحرائي الكبرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص 69.
- 8-A.Hampaté.Bâ:Aspects de la civilisation africaine,(personne,culture,religion),Présence africaine,Paris,France,1972,p,25.
- 9- عيون الطوارق : ص 250 .
- 10- عيون الطوارق : ص 110.
- 11- عيون الطوارق : ص ، 101 .
- 12- عمر الأنصاري:الرجال الزرق(الطوارق الواقع والأسطورة)،دار الساقى،بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص 17 .
- 13- عيون الطوارق : ص 79
- 14- عيون الطوارق : ص 110
- 15- عيون الطوارق : ص 114 .
- 16- عيون الطوارق : ص، 161 - 162 .
- 17- إبراهيم عبد الله : ،المركزية الغربية ،(إشكالية التميز والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ،بيروت، ط1 ، 1997 . ص، 231 .
- 18- عيون الطوارق: ص، 195 .
- 19- عيون الطوارق: ص، 149 .
- 20- عيون الطوارق: ص، 283 .

- 21- فريديك نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، تر: فليكس فارس، دار القلم، بيروت، لبنان، ص، 331 .
- 22- عيون الطوارق: ص، 282 .
- 23- عيون الطوارق: ص، 292 .
- 24- عمر الأنصاري: مرجع سابق، ص، 24 .
- 25- عيون الطوارق: ص، 130 .
- 26- عيون الطوارق: ص، 132 .
- 27- عيون الطوارق: ص، 171 .